المتاحف والمعارض

— ٣ —

بقلم : يوسف سلحان كبه

قصة برج لندن :-

من شاء أن يعرف جانباً من تاريخ بريطانيا في الأيام السود ، ويستعرض دوراً من ادوار الاستبداد في العصور السالفة ، يوم كان الحكم لا للقانون بل للفرد المستبد ، وكان الأمر والنهي للعواطف والشهوات لا للصالح العام... لابد له أن يزور برج لندن ، تلك القلعة الاثارية الرهيبة التي بني أول حصن فيها على عهد وليم الفاتح سنة ١٠٧٨ م ، ليكون سجناً لا كالسجون الأعتيادية ولكنه سجن للأمراء ومعقل للنبلاء وأعاظم النساء والرجال ، شأنه شأن الباستيل في فرنسا ، يدخله من ياء بسخط من السلطان أو ناء بمعارضة لمشيئة الملك أو جنت عليه بالحب احدى العشيقات والمحظيات .

برج لندن ، تسمية مجازية لأن البناية المعروفة بهذا الاسم والواقعة على نهر التايمز في مدينة لندن القديمة ، عبارة عن قلعة كبيرة ذات معاوج وأبراج متعددة بنيت في ادوار متفاوتة ، لتدل على بطش الملوك وسطوة الحكام في ذلك العصر الذي استعمر فيه اسم البرج رديفاً من الزمن يبعث الرعب في القلوب والهلع في النفوس ، حين كان يستقبل ضيوفه التعساء ليلقوا حتفهم على أيدي حراسه الطغاة أو يعيشوا في اقبيته مدى الحياة . . ! !

أبراج القلعة :-

أهم ما في القلعة اليوم أبراج ثلاثة استحالت الى متاحف للتاريخ ، هي البرج الدموي وبرج الجواهر والبرج الابيض (متحف الاسلحة القديمة) . أما الأبراج الاخرى فمن حيث الأهمية ليست ذات موضوع ، وللقلعة سور شاهق يضم الأبراج له باب . وحرس القصر وإن كانوا من شرطة لندن ، إلا أنهم يرتدون ملابس القرون الوسطى يذهبون ويجيئون بوجوه عابسة لا يتكلمون ولا يبسمون ، تخالهم غلاظ شداد . والحقيقة انهم يصطنعون الخشونة في الطبع والعجرفة في الكلام ، ليبرزوا لك صورة صحيحة كانت تهيمن على أفق البرج حين كان أجدادهم القدماء يحرسون بقسوة متناهية تلك القلعة الرهيبة أو البرج المخيف ! ! تتوسط الأبراج حديقة وارفة الأشجار دانية القطوف يانعة الزهور . وفي وسط الحديقة ، وبين الأحواض ، صخرة رخامية كبيرة ركزت عليها لوحة من النحاس ، نقشت فيها اسماء الأمراء والملكات والقواد الذين قضي عليهم بالموت في هذا المكان وبين تلك الأشجار . وتحت الأبراج طابق أرضي ، تنزل اليه بدرجات مظلمة ضيقة مغبرة تنتهي بسرداب معتم كئيب ، تتنفس فيه اضواء خافتة تكاد تنطفئ ليس لنورها غير ظل باهت رهيب ، وفي زاوية من السرداب بئر تصل بينها وبين التايمز قناة رفيعة . يدل ظاهر الحال ان هذه الفسحة تحت الأرض حافلة بتاريخ منكوم حين كانت احدى سجون القلعة تضيق بمن عصفت بهم الاهواء فعاشوا فيها بين نكد الدهر ونكبات الظروف .

في تلك الظلمة من الآثار بقايا مدافع قديمة كانت تحرس البرج في أيام عتوه وطغيانه ، وكذلك توجد مدافع مهملة يعلو بعضها الصدأ ، عليها كتابات عربية بالخط الثلثي الجميل ، هي من الأسلاب التي غنمها الانجليز من الهند وسلطان عدن عندما نشبت بينها الحروب في القديم .

في مكان موحش قليل الهواء ضعيف النور تكون الخطوات ثقيلة متعبة والاحاسيس مؤلمة تقبض النفس وتضيق لها الصدور . هكذا يشعر كل من دخل ذلك المكان ! !

البرج الدموي :-

للبرج الدموي مداخل سرية موحشة ، ومنافذ واطئة مخيفة ، يقطعها الزائر في ممرات متعرجة حالكة الظلام ، اذا اخرج يده لم يكد يراها . ولها دهليز يفضي الى نهر التايمز